أجلافين وسيليزيت

رواية تمثيلية في خمسة فصول

للكاتب البلجيكي موريس مترلنك
بقلم الدكتور محمد غلاب

تتمة الفصل الرابع

المنظر الرابع

(يمثل هذا المنظر فوق قمة البرج حيث ترى « سيليزيت » وأختها « إيسالين » الصغيرة)

سيليزيت — ها نحن أولاء فوق قمة البرج يا إيسالين ، وفي هذه الآونة يجب أن نعرف ما ينبغي عمله ... أوه ما أكثر النور في السماء وعلى الأرض وفوق سطح البحر : ثم لماذا هذا اليوم هو أكثر جمالاً من جميع الأيام الأخر ؟ .

إيسالين — أين هو ذلك الطائر الأخضر ؟

سيليزيت — إنه هنا ، ولكنه لم يَرَ بعد ، وسنحتى بعد قليل على الحائط ، ولكن انظري هنا قبل كل شيء ، إننا نرى كل القصور والحدائق والغابات . إن جميع الزهور قد تفتحت على شواطئ الجداول ، أوه ! ما أبدع خضرة الأعشاب في هذا الصباح ! . . إنني لا أجد « أجلافين ... ولكن هل ترين هناك « ميليادر » إنه ينتظرها ... اخفضي قامتك ، فلنختبئ ، إذ لا ينبغي أن يكتشف وجودنا هنا . إنه على حافة الخزان ، ذلك المكان الذي أيقظت فيه « أجلافين » آنفاً

إيسالين — شقيقتي ، انظري من هنا ، إنني أرى البستاني الذي لا يزال يغرس زهوراً حول القصر

سيليزيت — إنك سترينها تكبر وتتفتح يا إيسالين وستقطفينها لأجلي[1] ... تعالي تعالي ، أنا لم أعد أستطيع النظر إلى ذلك ، فلننظر من هذه الجهة الأخرى التي لا يرى منها إلا البحر الأكثر بعداً عنا من القصر ... إن البحر لجميل أيضاً ! إن الإنسان لا يستطيع أن يجد فيه مكاناً حزيناً في هذا الصباح ، إنه قد بلغ من الخضرة والعمق إلى حد أن الانسان لا يجد الشجاعة الكافية ... ثم إن كل ما يمكن أن يحدث لا يستطيع أن يحول بينه وبين ابتسامته هذه إلى السماء . هل ترين هذه الموجة الصغيرة التي تتكسر على الشاطئ ؟ أنا لا أستطيع ، أنا لا أستطيع ، قلت لك : إن الزهور والبحر يمنعانني من عمله . لا أستطيع أن أفعل ذلك أثناء النهار

إيسالين — هذه هي الطيور البحرية يا أختي ، إنه يوجد منها آلاف مؤلفة

سيليزيت — إنها تجيء معاً من الجانب الآخر

(١) عبر المؤلف هنا بجملة تدع القارئ يفهم أن سيليزيت تقصد أن أختها ستقطف الزهور لتضعها على قبرها دون أن تصرح بهذا حتى لا تنبه الفتاة الصغيرة إلى ما ترمي إليه شقيقتها

للبحر كأنما تحمل معها أخباراً جديدة ...

إيسالين — لا لا . إنها تحمل أسماكا يا أختى ، وإن صغارهن تصيح فى أحجار حوائط البرج ، إن مناقير تستوى مع أجسامهن في الطول . هل ترين ذلك الطائر الكبير الذى يحمل ثعبان البحر ؟ انظري إنها قد انتهت من أكله . ...

... ...

سيليزيت — ماذا قلت لجدتى يا إيسالين ؟

إيسالين — لماذا تبكين يا أختى ؟

سيليزيت — أنا لا أبكى ، وإنما أفكر ... أنا أفكر ... هل قبلت جدتى قبل أن أنصرف ؟

إيسالين — نعم أنت قبلتها ساعة انصرافك

سيليزيت — كم مرة ؟

إيسالين — مرة واحدة يا أختى ، لأننا كنا معجلتين

سيليزيت — أنا أعتقد أننى لم أكن وديعة معها

إيسالين — لقد كنا على عجل يا أختى

سيليزيت — لا لا ، أنا لا أستطيع أن أفعل هكذا ، إنها ستكون وحيدة ، وإنها سوف لا تذكر إلا شيئاً واحداً ، وهو أننى لم أكن وديعة ألا ترين أنه حين يرتحل الانسان ولم يكن ساعة رحيله أكثر وداعة منه قبل الرحيل ، فإن من حوله يظنون أنه لم يعد يحبهم ؟ ولكن العكس هو الذى ينبغى أن يعتقد في مثل هذا الموقف ، لأن الانسان الذى يفرط فى الحب هو الذى يخشى أن يكون وديعاً . حقا إن هذا الحب الذى يأبى أن يكون وديعاً في اللحظة الأخيرة هو خطىء ، لأن من يحوطونه لو عاشوا بعده ألف سنة لما تذكروا من كلامه إلا الكلمة الأخيرة . ولقد رأيت أنا نفسى حينما توفيت والدتي ولم تبتسم لى فى اللحظة الأخيرة ، فإننى لا أزال أتمثل أمامى أنها لم تبتسم لى كأن كل أيام الحياة لا يعتبر منها إلا هذه اللحظة الأخيرة . ثم ما ذا قلت لها عن أجلافين ؟ إننى لم أعد أتذكر . . ينبغى أن أرى جدتى ثانية ، أما الآخرون فأنا أفعل كل هذا لأجل سعادتهم ، فينبغى ألا يعلموا شيئاً . لكن هي منفردة ، وليس لأجلها أنى صعدت فوق البرج أو أني سأنزل من فوقه . أنت تفهمين أنه من غير الممكن أن أتركها هكذا . تعالى تعالى ، سنعانقها عناقاً أكثر قوة من قبل .

المنظر الخامس

(يقع هذا المنظر فى أحد أجنحة القصر حيث توجد الجدة العجوز نائمة وترى « سيليزيت » و « إيسالين » داخلتين عندها)

سيليزيت موقظة « ميليجران » : جدتى . .

ميليجران — ها أنت فى النهاية قد عدت بعد أن انتظرتك طويلا .

سيليزيت — اصفحى عنى أيتها الجدة ، فأنا أعتقد أننى لم أكن وديعة حين فارقتك منذ زمن

ميليجران — بلى ، لقد كنت جد وديعة ، ما ذا حدث ؟ يخيل إلى أنك مضطربة .

سيليزيت — أنا لست مضطربة ياجدتى ، ولكننى كنت محتاجة لأن أقول لك : إنى أحبك .

ميليجران — أنا أعرف ذلك يا سيليزيت ، ولقد رهنت لى عليه أكثر من مرة فى حياتك ، وأنا لم أرتب قط فى هذا الحب .

سيليزيت — نعم ياجدتي ، ولكننى لم أكن أعرف ذلك حتى الآن .

ميليجران — اقتربى منى أكثر من ذلك

يا طفلتى ، لأنك تعرفين أننى لا أستطيع أن أعانق من أحب ما دامت ذراعاى المسكينتان لا تطيعاننى . أنت تظهرين لى غريبة هذا اليوم . ألم تكونى تعرفين إلى الآن أنك تحبيننى ؟

سيليزيت — بلى ، أنا كنت أعرفه كما يعرف الانسان أحياناً دون أن يعرف ، ثم يعود فيقول فى نفسه : إنه لم يكن خيراً ، وإنه كان يمكنه أن يفعل أكثر من ذلك ، وإنه لم يحب كما كان ينبغى أن يحب ، ثم هو بعد ذلك يريد أن يستأنف قبل أن يمضى الوقت وتضيع الفرصة . أنا ليس لى أب ولا أم يا جدتى ، ولولا وجودك لما عرفت كيف تكون الأم . أنت لم تهجرى قط سيليزتك الصغيرة . ولقد كان يسعدنى أن أعرف إلى من أتجه حينما تنزل بى عادية من عاديات الشقاء .

ميليجران — لكن لا .. لكن لا ياسيليزيت بل أنت التى لم تهجرينى . لقد كانت تلوح عليك علائم الجد المرير بعد ظهر اليوم ، ومع ذلك ، فأنا لا أظن أنك حزينة .

سيليزيت — لقد كنت دائماً سعيدة ، والآن أنا أعرف ما يمكن أن تكون السعادة .

ميليجران — أو لم تفقديها على الأقل ؟

سيليزيت — بالعكس ، أنا أعتقد أننى وجدتها . وأنت يا جدتى أكنت سعيدة أيضاً ؟

ميليجران — متى ذلك يا سيليزيت ؟

سيليزيت — فى الزمن يا جدتى .

ميليجران — عن أى زمن تتكلمين يا طفلتى ؟

سيليزيت — أنا أتكلم عن زمن الحياة يا جدتى

ميليجران — لقد مرت بى أيام سيئة كجميع الذين يعيشون فوق الأرض ، ولكننى أستطيع أن أقول : إننى كنت سعيدة ما دمت أنت لم تغادرى المنزل الذى أحيا فيه .

سيليزيت — لا ينبغى أن تتعلق السعادة بهذا يا جدتى . أكنت تصيرين شقية لو لم أكن أعيش معك ؟

ميليجران — ستستطيعين أن تكونى سعيدة حين لم أصبح موجودة ياطفلتى . لأنه سيتبقى لك بعدى أشياء كثيرة .

سيليزيت — إذا فقدتنى فستكون لديك أجلافين

ميليجران — إنهالم تتم قط عن ركتى ياسيليزيت

سيليزيت — أحبها بالرغم من ذلك ياجدتى .

ميليجران — أنا أحبها مادمت تحبينها ياطفلتى

سيليزيت — يجب أن تحبيها على الأخص لأنها هى التى صيرتنى سعيدة . إنها جميلة أيتها الجدة إلى حد أننى منذ عرفتها من قلبى وأنا أعيش إلى جانبها ، وعيناى دائماً مبللتان بالدموع .

ميليجران — إن يديك محرقتان اليوم ياسيليزيت :

سيليزيت — هذا لأنى مفرطة فى السعادة أيتها الجدة . هل آلمتك أحياناً ؟ .

ميليجران — أنا لا أذكر ألبتة شيئاً من ذلك ياطفلتى .

سيليزيت — بلى ، بلى ، لابد أنك تتذكرين ، لأن الانسان لايخلو من أن يؤلم من يحبه أحياناً ، لكن ينبغى أن تقولى لى : متى قدمت إليك أكبر الآلام ؟ .

ميليجران — أنت لم تقدمى إلىّ إلا قليلاً من الألم كلما كنت تبكين ، وحينما كنت تبكين لم تكن هذه غلطتك ، وهذا هو كل ما أذكره .

سيليزيت — أنت لن ترينى باكية بعد الآن أيتها الجدة .

ميليجران — إعرفى جيداً ياسيليزيت أن السعادة تغدو وتروح بين أفراد بنى الانسان أشبه شئ برقاص الساعة ، ولهذا ينبغي أن يؤجل الانسان بكاءه إلى آخر وقت ممكن .

سيليزيت — أنت محقة ياجدتى ، وحينما تعود إليكم السعادة ، أنت وهم ستجمعينهما ذات مساء حولك وستقصين عليهما قصة حفيدة ... ...

ميليجران — ماذا تقولين ياسيليزيت ؟ ؟

سيليزيت — لاشئ ، لاشئ أيتها الجدة ، إننى كنت أفكر فى الوقت الذي كنت فيه صغيرة جداً

ميليجران — وأنا أيضاً أفكر فى ذلك الوقت يابنيتى ، إننى لم أكن إذ ذاك مريضة ، وكنت أستطيع أن أحملك فوق ذراعى أو أن أتبعك ، وقد كنت تذهبين وتجيئين وتضحكين فى القاعات وتفتحين الأبواب صائحة بصوت مزعج قائلة : « إنها تقترب ، إنها تقترب ، إنها هنا » ولم يكن أحد يعرف عمن كنت تتكلمين بهذا الازعاج ، بل إنك أنت نفسك لم تكونى تعلمين ، ولقد كنت أنا أجاريك فى هذا وأتبعك مخترقة الدهليز إلى الحديقة ، ولكن كل ذلك كان شيئاً تافهاً ولم يكن له غاية معينة ، ولكن المهم أننا كنا نتفاهم ونبتسم طيلة اليوم ، وهكذا بفضلك أنت عدت فأصبحت أمّا مرة ثانية بعد أن فقدت جمالى . وأنت ستعرفين يوماً أن النساء لايتعبن أبدا من أن يكن أمهات ، وأنهن يهزئن الموت نفسه إذا جاء لينام فى حجورهن ، ولكن كل شئ يمر قليلا قليلا ، والطفلات الصغيرات يصرن كبيرات .

سيليزيت — أنا أعرف ذلك ياجدتى ، والآلام أيضاً تمر وتذهب وتعود أكثر كبراً مما ذهبت ، ولكن الجمال يبقى ، وهناك قوم آخرون سعداء .

ميليجران — من قال لك ذلك ياطفلتى ؟

سيليزيت — إن أجلاثين هى التى قالت لى كل ذلك أيتها الجدة .

ميليجران — ما أشد لمعان عينيك ياسيليزيت : أنا أعتقد أنك تبكين ياطفلتى .

سيليزيت — لا لا ، أنا لا أبكى ، وإذا بكيت قليلا فانما من السرور أبكى .

ميليجران — قبلينى ياسيليزيت ، قبلينى بقوة وامكثى بالقرب منى .

إيسالين — أيتها الأخت أنا أريد أن أعانقها أيضاً

سيليزيت ، مبعدة إيسالين بيديها : لا لا يا إيسالين دعينى أعانقها وحدى اليوم ، سيأتى عما قريب اليوم الذى تعانقينها فيه بدورك منفردة ... وداعا أيتها الجدة وداعا

ميليجران — سيليزيت ! ماذا حدث ؟ أين تذهبين ؟

سيليزيت — وداعا أيتها الجدة وداعا

ميليجران — سيليزيت ، امكثى هنا ، أنا لا أريد ، أنا لا أريد مطلقاً أن تنصرفى

(قالت هذه الجملة وهى تحاول فى جهد شديد أن تمد ذراعيها فى الفضاء)

أنا لا أستطيع ، أنا لا أستطيع ؛ وأنت ترين ذلك جيداً ياسيليزيت

سيليزيت — وأنا أيضاً لا أستطيع أيتها الجدة . وداعاً نامي فى سلام هذه الليلة ولا تحلمى أحلاماً مزعجة . وداعاً أيتها الجدة وداعاً .

(قالت ذلك وخرجت مسرعة ، ويدها قابضة على يد أختها الصغيرة)

ميليجران — سيليزيت ! ... سيليزيت !

ثم أخذت تبكي بكاء خافتاً في وسط الظلمة الحالكة التي جعلت تعم وتشمل كل شيء) .

المنظر السادس

(يقع هذا المنظر في أحد دهاليز القصر حيث كانت سيليزيت مارة مع شقيقتها الصغيرة ثم لمحت أجلافين قادمة نحوهما فحاولت أن تختبيء ولكنها لم تنجح في هذه المحاولة إذ لمحتها أجلافين فتقدمت منها قائلة : من هو أنت يا سيليزيت؟ لماذا أنت مختبئين ؟)

سيليزيت — أنا لا أدري بالضبط لماذا أنا أختبيء . لعلي ظننت أنك تريدين أن تكوني منفردة .

أجلافين — أين كنت ذاهبة ؟ ها هي ذي إيسالين الصغيرة تنظر إلي نظرات تدل على أنها تحقق شيئاً ، لا بد أنكما قد تآمرتما على شيء .

سيليزيت — نعم لقد أعطيت وعداً يجب علي أن أتمسك به .

أجلافين — إلى أين أنت تقودين سيليزيت يا إيسالين ؟ .

(ولكن إيسالين لم تجب على هذا السؤال)

أجلافين مستمرة : ألا تريدين أن تقولي لي ذلك ؟ وإذا جعلت أقبلك حتى تنبئيني فماذا أنت فاعلة؟

سيليزيت — أوه! إنها بدأت تعرف كيف تحتفظ بالسر كأنها شخص كبير .

أجلافين — أنت تظهرين لي الآن متقمعة ولا أدري أذلك مسبب عن ظلمة المساء أو عن شيء آخر؟

سيليزيت — أنا أشتهي أن أقبلك يا أجلافين .

(قالت هذا ثم تعانقتا)

أجلافين — إن شفتيك غضتان وعذبتان في هذا المساء .

سيليزيت — وشفتاك أيضاً ، وفوق ذلك فإن فيهما قوة عجيبة .

أجلافين — إنك تظهرين لي منيرة الليلة كأنك مصباح صغير يا سيليزيت .

سيليزيت — ألم ترى جدتي ؟ .

أجلافين — لا ، هل ينبغي أن أراها ؟ .

سيليزيت — لا لا ، إن هذا عبث ، لأنها نائمة في هذه اللحظة ، هل أنت ذاهبة الآن لتقابلي ميلياندر؟

أجلافين — نعم ، وأنت يا سيليزيت ؟ .

سيليزيت — حينما ترينه قبليه بالنيابة عني . أنا سعيدة بأن أفكر في أنه سيقبلك أنت حينما لا أوجد أنا . ولكن ألا ترين أن إيسالين يعوزها الصبر وأنها تجذبني من يدي ؟ وداعاً يا أجلافيني ! ستريني في المستقبل .

(قالت هذا وخرجت مع أختها إيسالين وأخذت تبتعد مترنمة بتلك الأنشودة الحزينة السابقة التي طالما رددت فيها اسم الموت ثم انقطع الترنم فجأة وخرجت أجلافين بدورها .)

المنظر السابع

(يحدث هذا المنظر فوق قمة البرج حيث تشاهد سيليزيت وإيسالين تدخلان)

سيليزيت — والآن هي الساعة يا إيسالينتي الصغيرة ، وأنا لن أنزل بعد ذلك لأبتسم لهما مرة أخرى . إن الطقس بارد الليلة فوق قمة البرج . وإن ريح الشمال هي التي جعلت موج البحر يلمع الآن هكذا . لم يعد الانسان يرى الزهور ولا يسمع أصوات الناس ، وكل شيء صار الآن أكثر حزناً منه في هذا الصباح .

إيسالين — والطائر ، أين هو أيتها الأخت ؟

سيليزيت — ينبغي الانتظار حتى تهبط الشمس في عمق البحر وتموت جميع الأضواء في الأفق ، لأن الطائر يخشى النور ، ولأنه هو والشمس لم يتلاقيا قبل الآن

إيسالين — وإذا وجدت النجوم أيتها الأخت ؟

سيليزيت — وإذا وجدت النجوم ؟ ! ولكن النجوم لم تظهر بعد في السماء ، وإن كانت مستعدة لأن تثقبها عما قريب ؛ ولهذا ينبغي الاسراع لأنه حينما تظهر النجوم يكون ذلك أكثر رعباً وإزعاجا .

إيسالين — أنا أشعر كثيراً بالبرد أيتها الأخت .

سيليزيت — لنجلس هنا إلى جانب الحائط الذي سيحمينا من الهواء إلى أن ينطفئ آخر خط أحمر فوق سطح البحر . أترين كيف تغمس الشمس في الماء ببطء ؟ . عند ما تغرب سأذهب لأري . دعيني ألفك في إزاري الأبيض الذي لم أعد محتاجة اليه .

إيسالين — أنت تقبلينني بعنف أيتها الأخت .

سيليزيت — هذا لأنني في غاية السعادة يا إيسالين . أنا لم أكن قط أكثر سعادة مني الآن ؛ ولكن انظري إليّ جيداً . ألست الآن أكثر جمالاً مني في الماضي ؟ . أنا أبتسم ، أنا أبتسم وأشعر بذلك . وأنت ؟ ألا تبتسمين لي ؟ .

إيسالين — لا ، أنت تتكلمين سريعاً جداً أيتها الأخت .

سيليزيت — هل أتكلم سريعاً ؟ .

إيسالين — نعم ، وفوق ذلك فأنت تمزقين الزهور .

سيليزيت — أية زهور ؟ آه ، هذه ؟ لقد نسيت أنها زهورك .

إيسالين — أنا لا أريد أن تبكي أيتها الأخت .

سيليزيت — لكن أنا لا أبكي يا إيسالين الصغيرة ، وهذا على الأخص هو الذي ينبغي ألا تتخيليه ؛ إنما من الإفراط في الابتسام تظهر على ملامح البكاء .

إيسالين — ولكن لماذا عيناك كأنهما تبكيان ؟

سيليزيت — أنا لا أستطيع أن أعرف ما تفعله عيناي ، ولكن احفظي جيدا ما يأتي : إذا قلت لأحد إنني كنت أظهر حزينة فستعاقبين زمناً طويلا

إيسالين — ولماذا ؟

سيليزيت — لأسباب ستعلمينها يوما ما ، ثم لا ينبغي أن توجهي إليّ هذه الأسئلة فأنت لست إلا شيئاً صغيراً لا يستطيع أن يفهم ما يفهمه الآخرون ؛ وأنا أيضاً في مثل سنك لم أكن أفهم بل وبعد ذلك بوقت طويل ، فإذا رأيتني أفعل هذا أوذاك ، فليس ما ترينه هو الأكثر أهمية . هل ترين يا إيسالين الصغيرة ؟ . أنا لا أستطيع أن أتحدث به . ومع ذلك فسأكون في حاجة إلى أن أقوله لأحد ، لأنه من المحزن أن ينفرد الانسان بمعرفة مثل هذا .

إيسالين — لم يعد الانسان يرى الشمس تقريباً أيتها الأخت .

سيليزيت — انتظري ، انتظري أيضاً يا إيسالين الصغيرة ، لأن شيئاً آخر يقترب بقدر ما تبتعد الشمس ، وبقدر ما يقترب هذا الشيء تنكشف أمامي الحياة بشكل أوضح ، أنا لم أعد أعرف إذا كنت أحسنت العمل باحضارك معي إلى قمة هذا البرج ومع ذلك فقد كان ينبغي أن يحضر أحد إلى هنا ، لأنه يوجد من الناس من يشتهي أن يعرف كل شيء وإن كانوا لا يصيرون سعداء إلا بأن يجهلوا هذا .

وفى الوقت الحاضر أيتها الأخت الصغيرة أنت لا تحفظين كل ما أقوله لك . نعم ولكن سيجىء اليوم الذي ستفهمين فيه كل شىء وسترين كل مالا ترينه الآن أثناء عرضه عليك . وإذ ذاك ستصيرين حزينة ولن تستطيعى أن تنسى ما ستلمحه عيناك المسكينتان عما قريب . ومع ذلك أفلا ينبغى أن ترى دون أن تفهمى حتى لا يفهم الآخرون ؟ ولكنك لن تستطيعي أن تمنعي نفسك من البكاء حينما ستكبرين وقد يثقل هـذا المنظر حياتك . ولذلك أنا أسألك أن تصفحى عني اليوم دون أن تفهمى ما سيؤلمك عند ما تفهمينه جيداً فى المستقبل

إيسالين — إن قطعان الحيوانات تعود من الحقول أيتها الأخت .

سيليزيت — وغداً ستعود القطعان أيضاً .

إيسالين — نعم أيتها الأخت .

سيليزيت — وغداً ستغنى الطيور أيضاً .

إيسالين — نعم أيتها الأخت .

سيليزيت — وغداً ستتفتح الزهور أيضاً .

إيسالين — نعم نعم أيتها الأخت .

سيليزيت — لماذا ينبغى أن يكون الأصغر هو الذى ... ... ؟

إيسالين — لم يعد باقياً إلا الخط الصغير الأحمر أيتها الأخت .

سيليزيت — أنت محقة ، لقد جاء الوقت ... ... إنما أنت التى تدفعيني . وكذلك النجوم يعوزها الصبر . وداعا يا إيسالين ! إنى لسعيدة جداً جداً .

إيسالين — وأنا أيضا أيتها الأخت أسرعى ، فإن النجوم ستظهر .

سيليزيت — لا تخافى يا إيسالين إنهم لن يرونى بعد الآن . قفى ، تعالى ، إجلسى فى هـذه الزاوية ودعينى أربط طرفى إزارى على صدرك ، لأن الهواء أمسى بارداً ... ... هل أنت أحببتنى حقاً ؟ لكن لا لا ، لا تجيبى على هذا السؤال فأنا أعرف الجواب جيداً . أنا أريد أن أضع هنا أربعة أحجار ضخمة ، لأحول بينك وبين الاقتراب من الفتحة التى سأنحنى عليها . إذا أنت لا ترينى ، فلا تخافى ، لأنى سأكون قد نزلت من جهة أخرى ... ... لا تنتظرينى حينئذ وانزلى وحدك من السلم الحجرى ، وعلى الأخص لا تقتربى من الحائط لترى ماذا أفعل ، وإذا فعلت ذلك فلن ترى شيئاً وستعاقبين . أنا سأنتظرك تحت البرج ... ... قبليني يا إيسالين وقولى لجدتنا ... ...

إيسالين — ماذا ينبغى أن أقول لها أيتها الأخت؟

سيليزيت — لا شىء ، لا شىء ، لقد كنت أعتقد أننى نسيت شيئاً .

(قالت هذا وتقدمت نحو الحائط المتهدم بجانب البحر ثم انحنت عليه قائلة : أوه ، إن البحر يظهر بارداً وعميقاً !)

إيسالين — أيتها الأخت ؟

سيليزيت — إنه هنا ، أنا أراه . لا تتحركى من مكانك .

إيسالين — أين هو ؟

سيليزيت — انتظري انتظري ... ... يجب أن أنحنى أكثر من ذلك ... ... يا إيسالين ... ! يا إيسالين ... ! إن الأحجار تضطرب ! إننى أهوى ! ... أوه ... ...

(لم تكد تنهى هذه الكلمات حتى انخلع جانب من الحائط وسقط معها إلى أسفل البرج فسمع له ضجيج ممتزج بصوت ضعيف مؤلف من ألم وخوف

وحزن ثم تلا ذلك سكون طويل عميق) .

إيسالين، صائحة : أيتها الأخت ... أين أنت؟ ... إنى خائفة أيتها الأخت ! ... ...

(ثم أخذت تبكى وحدها فوق قمة البرج)

الفصل الخامس

المنظر الاول

(يحدث هذا المنظر فى أحد دهاليز القصر حيث يشاهد « ميليندر » و « أجلاقين » داخلين)

ميليندر — إنها الآن نائمة ، ولن كل توسلاتى إلى الطبيب ذهبت عبثاً ، إذ لم أستطع أن أنتزع من فمه كلمة أمل واحدة ، وهو قد غادر القصر . إنها سقطت على ربوة من الرمال كأن هواء البحر قد جمعها هذا المساء إلى جانب البرج ، كأنما فعل ذلك خصيصاً ليستقبلها فى وداعة ولين . هناك قد وجدها الخدم فى نفس الوقت الذى كنت تظنين فيه أنك ستذهبين لملاقاتها عند طريق القرية . لم يظهر بها أى جرح ، وكأن جسمها الصغير لم يمسه أى شئ ، ولا يرى عليها شئ غير عادي إلا ما ينساب من الدماء من بين شفتيها . وحينما فتحت عينيها ابتسمت لى دون أن تنبس ببنت شفة .

أجلاقين — لكن إيسالين ماذا قالت ؟ قد قيل لى إنها كانت معها .

ميليندر — لقد سألتها . إنهم وجدوها فوق قمة البرج تضطرب هلعاً وبرداً . إنها تردد باكية أن الحائط قد انفتح بينما كانت سليزيت منحنية لتقبض على طائر كان يمر فى تلك اللحظة ... حينما قبلتها بعد ظهر اليوم فى هذا الدهليز نفسه ، بل وبين هذين العمودين كانت تظهر لى أقل حزناً من ذي قبل » .

آه ! . أليست هذه الجملة نفسها هى التى تديننا نحن الاثنين وتاقي علينا المسئولية ؟ ... والآن كل ماقالت لنا من كلمات ، وكل ما قمت به أمامنا من أفعال يصعد من جديد إلى نفسى فى شكل ارتياب وحشى مخيف سينتهى بتحطيم حياتى ... إن الحب لا يقل قسوة عن البغض ... أنا لم أعد أصدق ، أنا لم أعد أصدق ! ... إن كل آلامي قد تحولت إلى تقزز ... إنى أبصق على الجمال الذى يجلب الشقاء ... أنا أبصق على العقل الذى يريد أن يكون فيما أكثر من اللازم . أنا أبصق على الحظ الذى لا يريد أن يلين أو يتسامح فى شئ ... أنا أبصق على الكلمات التى لا تخدع إلا الجانب الحيوانى فى الإنسان ... أنا أبصق على الحياة التى لا تريد أن تستمع إلى الحياة ، أو على الأثرة التى لا تريد أن تستمع إلى الإيثار .

أجلاقين — ميليندر ... ...

ميليندر ، في جفاف وقسوة : ماذا تريدين منى ؟؟

أجلاقين — تعال تعال ، أنا أريد أن أراها لأن هذا غير ممكن ... ينبغى أن نعرف ... إنها لم تعمل ذلك بإرادتها ، لأنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، وإلا لكانت إذاً ... ...

ميليندر — إذاً . ماذا ؟ .

أجلاقين — ينبغى أن نعرف ... تعال تعال ... لا أهمية للوسيلة التى يجب أن نعرف بها ... لابد أن تكون قد تألمت كثيراً حتى تصل إلى درجة الانتحار ! . أنا لن أعرف ذلك ولن أستطيع أن أعرفه أبداً .

(نطقت بهذه الجملة ثم جذبت ميليندر بغتة إلى حجرة سليزيت)

المنظر الثانى والأخير

(يقع هذا المنظر فى حجرة سيليزيت المحتضرة المطروحة على سرير الموت حيث يشاهد ميليادر وأجلافين يدخلان . سيليزيت محاولة النهوض من سريرها فى ضعف شديد وهى تقول : هل هو أنت يا أجلافين ؟ هل هو أنت يا ميليادر ؟ . . . . . لقد كنت أنتظركما لكى أسعد بمرآكما .

ميليادر يلقى بنفسه على السرير باكياً ، منحباً وهو يصيح : ياسيليزيت ياسيليزيت)

سيليزيت — ماذا عندكما ؟ إنكما تبكيان .

أجلافين — سيليزيت ، سيليزيت ماذا فعلت ؟ إننى لتعسة .

سيليزيت — ماذا حدث يا أجلافين ؟ إنك تظهرين لى قلقة ، هل أنا فعلت ماصيرك بائسة ؟ .

أجلافين — لا لا ياسيليزتى المسكينة ، لست أنت التى تسلبين من الناس سعادتهم ، وإنما أنا التى أجذب الناس نحو الموت . أنا التى لم أعمل ما كان يجب عمله .

سيليزيت — أنا لا أفهم هذا . ما ذا حدث ؟

أجلافين — لقد كان يجب علىّ أن أعرف ذلك ، بل أنا أظن أننى عرفته بالفعل يوم كنت أتحدث اليك عنه . ها أنذى أسمع منذ أكثر من أسبوع صوتاً يصبح من غير انقطاع فى داخل قلبى مردداً صدى هذا الحادث ، ولكنى لم أعرف ما ذا أعمل ولم أستطع الحصول على شىء ؛ على حين أن أقل الحمل فى هذا الموقف كانت تستطيع أن تنجى حياة ذلك الكائن الذى لم يكن يطلب إلا أن يحيا ، وإن أصغر الناس شأناً كان يمكنه أن يجد بسهولة تلك الحيل التى تحفظ الحياة .

سيليزيت — ولكن ماذا كنت تعرفين إذاً ؟

أجلافين — حينما تحدثت إلى عن الفكرة التى كانت عندك منذ أيام ، بل وفى هذا الصباح ، بل وبعد ظهر اليوم أيضاً كان يجب علي أن أغمس يدى فى أعماق روحك ، لأبحث فيها عن الموت الذى كنت أتمثله حيا فى داخل نفسك . كان ينبغي أن أستعين بالحب لأنتزع من نفسك الاعتراف ، ولكننى لم أعرف شيئاً . ولقد كنت أنظر دون أن أرى بالرغم من كل ما أرى ، ولكن أتفه فتاة من بنات هذه القرية كانت تستطيع أن تجد من القبل ما تنجى به حياتنا جميعاً ، وبالأحرى ، إنها كانت تستطيع أن تفعل خيراً مما فعلته أنا فى هذا الموقف . أنا إما أن أكون سافلة إلى درجة لا يمكن التعبير عنها ؛ وإما أن أكون عمياء إلى حد لا يدرك مداه . ! إننى فى هذا الموقف قد فررت من الحقيقة للمرة الأولى فى حياتى كما تفر الأطفال . أنا لم أعد أجرؤ على أن أسائل نفسي . اصفحى عنى ياسيليزيت لأنى لن أكون سعيدة بعد الآن .

سيليزيت — أنا أؤكد لك أنني لا أفهم هذا .

أجلافين — لا تهربى من الحقيقة بدورك ، فقد رأيت ماذا يحدث للانسان حينما لا يطيع ما يسمعه في أعماق نفسه .

سيليزيت — ماذا سمعت إذاً فى أعماق نفسك ؟

أجلافين — لقد كنت أسمع نهاراً وليلا أنك تبحثين عن الموت .

سيليزيت — أنا لم أبحث عنه يا أجلافين ، وإنما هو الذى دفعنى دون أن أذهب لملاقاته .

أجلافين — إن الموت كان مشفقاً علينا جميعا ، ولهذا أنت ترين أنه لم يبحث عنك ما دام قد فر منك حينما كنت تتعقبينه .

سيليزيت — لا لا يا أجلافينى ، إنه بكل بساطة

ينتظر حتى تكوني أكثر سعادة .

أجلافين — إذاً فسينتظر زمناً طويلا ياسيليزتي المسكينة .

سيليزيت — استمعي إلى : إنني لجد مسرورة من مجيئك إلى على الفور ، لأني أحس أنني لن أبقى متعقلة وقتاً طويلا ، إذ لدى الآن شيء يحدث في عيني اضطراباً خفيفاً ، لكن ما سأقوله بعد قليل ، أنا نفسي لا أعرفه ، لأن من يحتضرون — كما تعرفين جيداً — لهم أفكار غريبة . . . لقد رأيت في الماضي من يموتون ، والآن هذا دوري ، وعلى ذلك ، فلا تلتفتي إلى ما سأقوله عما قريب ولا تعبئي به ألبتة ، أما الآن فأنا أعرف ما أقول ، وهو وحده الذي يجب عليك أن تتمسكي به . أنا أظن أنك مرتابة يا أجلافين .

أجلافين — واحر قلباه ! إنها يقينيات لا شكوك .

سيليزيت — أتظنين أن . . .

أجلافين — نعم . . .

سيليزيت — أتظنين أنني لم أسقط بارادتي ؟

أجلافين — أنا متأكدة من ذلك يا سيليزيت

سيليزيت — يقال إن الانسان لا يستطيع أن يكذب إذا حضره الموت ، ولأجل هذا أردت أن أنبئك بالحقيقة .

أجلافين — أنا أعرف أنك تحيينا الحب الذي يشجعك على أن تقولي لنا الحقيقة .

سيليزيت — لقد هويت دون أن أريد ذلك . . . هل هو أنت الذي تنتحب هكذا يا ميليانذر ؟ .

أجلافين — استمعي إلى بدورك يا سيليزيت ، أنت تعرفين أننا نعلم الحقيقة ، وإذا كنت أسألك في هذه اللحظة ، فليس معنى هذا أنني أرتاب ، ولكنني كنت أرغب في أنك أنت لا ترتابين . . . يا سيليزتي المسكينة إنني أركع أمامك ، إنك بكل بساطة فعلت أجمل ما يمكن أن يفعله الحب حينما ينخدع . . . . ولكن الآن ، أنا أسألك باسم حبنا الذي لا ينخدع أن تفعلي شيئاً أسمى مما فعلت . أنت تحوين الآن بين شفتيك الصغيرتين جوهر الهدوء العميق في حياتنا جميعها .

سيليزيت — عن أي هدوء تتكلمين يا أجلافين ؟

أجلافين — أنا أتكلم عن هدوء شديد الحزن وشديد العمق !

سيليزيت — ولكن كيف يمكن أن أستطيع أنا منحكم هدوءاً عميقاً ؟ أنا لا أرى في نفسي الموطن الذي أستطيع منه الحصول على هذا الهدوء ، فكيف أمنح مالم أحصل عليه ؟

أجلافين — ينبغي أن تقولي لنا بكل بساطة إنك أردت أن تموتي ، لتسعدينا .

سيليزيت — كنت أشتهي أن أقوله لك ، ولكن هذا مستحيل ما دام غير حقيقي . هل تعتقدين أن الانسان يكذب هكذا في ساعة موته ؟

أجلافين — أنا أرجوك ياسيليزيت ألا تفكري في موتك . . . . عند ما أقبلك هكذا ، فأنا أنزل لك عن حياتي كلها ، وليس من الممكن أن يموت الانسان ما دامت روح أخرى تتنفس في أنفاس حياته . يا إلهي — ماذا ينبغي عمله لوقف روحك عن الخروج ؟ . . لو أن الموت كان هنا لفهمت أنك قد تكذبين ، ولكنه بعيد عنا ، وإن الحياة هي التي تريد الحقيقة ، حقيقة حبك الجميل ، لأجل أن تصيري محبوبة أكثر مما كنت . لا تقولي : لا ؛

لا تهزي رأسك ، لأنك تعرفين أن الانسان لا ينخدع حينما يتحدث بهذه اللهجة .

سيليزيت — ومع ذلك فأنت تنخدعين ياأجلاڤين

أجلاڤين — إذاً ، فسنظل نبكي وكل منا بيننا وبين صاحبتها بعد ألف مرحلة ما دمنا لا نتفاهم .

سيليزيت — ولماذا لا تصدقين الحقيقة ؟

أجلاڤين — لأنه لا توجد كلمة واحدة ولا فعل واحد مما حولنا يؤيد عكس ما أذهب إليه ولو عند أصغر طفل .

سيليزيت — وما هو ذلك الذي حولنا ؟ .

أجلاڤين — لماذا كنت ذاهبة لتودعي جدتك ؟

سيليزيت — لكن أنا كنت أودعها في كل مرة أخرج فيها .

أجلاڤين — لماذا ..... ولماذا كل شيء ياسيليزي ؟ ! . أليس من الشقاء أن يوجه الانسان مثل هذه الأسئلة عند ما يفقأ الموت العيون لاسيما وأني أعرف جيداً أن الحقيقة هنا تحت يدي وعلى مقدار إصبعين من قلبي ؟ .

سيليزيت — أنا كنت أظن أنني سعيدة ، ولكنك ستحزنينني إذا ارتبت فيما أقول . ماذا ينبغي أن أعمل ، لكي لا تشكي ؟ .

أجلاڤين — لا توجد إلا الحقيقة ياسيليزيت .

سيليزيت — لكن أية حقيقة أنت تريدين إذاً يا أجلاڤين ؟ .

أجلاڤين — إنما أنا التي قذفت بك من فوق البرج دون أن أعرف .

سيليزيت — لا لا لم يقذف بي أحد[1] .....

أجلاڤين — إن كلمة واحدة تكفي لإضاءة الحياة ، وإنني أسألك راكعة أن تنطقي بهذه الكلمة . قوليها لي بصوت منخفض إذا أردت أو أشيري بعينيك ؛ وميليساندر نفسه لن يعرفها .

ميليساندر — إن أجلاڤين محقة ياسيليزيت فأنا أطلب ذلك أيضاً .

سيليزيت — لقد هويت وأنا أنحني .....

أجلاڤين — لقد سألتني كثيراً عما كنت سأفعله لو أني في موقفك

سيليزيت — لقد هويت وأنا أنحني

أجلاڤين — ألا تعرفين لماذا أنا أسأل هكذا ؟

سيليزيت — أجلاڤين ! .....

أجلاڤين — سيليزيت ماذا حدث ؟ أنت تتقدمين ! أتتألمين أكثر من ذي قبل ؟

سيليزيت — لا ، أنا أتألم من فرط السرور ... أوه كم أنت تتعبين يا ميليساندر !

ميليساندر — سيليزيت . . .

سيليزيت — لا تبك هكذا يا ميليساندري المسكين ، إنما الآن فقط يتحاب الناس ولا داعي للدموع ، وسترى بعد قليل أنني سأبتسم لك حينما أصير جثة هامدة ، ولن تستطيعا إذ ذاك أن تصدقا أنني ميتة مما تريانه على وجهي من السعادة ، وأنا لا أفهم كيف أني — مع صغر شأني إلى هذا الحد — أستطيع أن أجد في قلبي فردوساً عظيماً إلى هذه الدرجة ؛ ولهذا أنا أخشى أحياناً أن أرتحل حاملة

(١) يقصد المؤلف بقذفها إياها من فوق البرج أنها هي التي تسببت لها في الانتحار .

معي جميع السعادة التي أحس بها دون أن أترك شيئاً لمن سيقون بعدى

ماذا ؟ أتبكين أنت أيضاً يا أجلافين ؟

أجلافين — إمنحينا السلام العميق ياسيليزيت

سيليزيت — أنا أرد إليك السلام الذي منحتنى إياه يا أجلافين

أجلافين — أنت تستطيعين منحه ، ولكنك لا تفعلين

سيليزيت — إن ما لدى هو مع ذلك عظيم جداً

أجلافين ، باكية : لو كان القدر نفسه ضدك لكان خاطئاً يا سيليزيت

سيليزيت ، هاذية بصوت متغير : جدتى كانت تقول لى : لماذا أنت ترتجفين ؟ لماذا ترتجفين يا طفلتى ؟ — إننى أرتجف بسبب المفتاح الذى وجدته يا جدتى

أجلافين — سيليزيت ! .....

سيليزيت ، مستفيقة : إيسابين . . . . . ماذا أنا قلت ؟ قولى لى : ماذا قلت ؟ ليس هذا حقاً . . . . لقد تكهنت بذلك وتنبهتك إليه

أجلافين — لا شيء ، لا شيء ، أنت لم تقولى شيئاً ، لا تعذبي نفسك يا سيليزتى المسكينة

سيليزيت — لقد نبهتك إلى أن كل ما يمكن أن أقوله عما قريب سوف لا يكون صحيحاً . ينبغى الصفح عنى ، لأن روحى ضعفت . هل أنا تكلمت عن جدتي ؟

أجلافين — نعم

سيليزيت — نعم أنا كنت أريد أن أقول لك : ينبغى أن تنهضيها دون أن تلمسى ذراعيها ... لقد كنت أريد أن أعلمك هذا ، ولكن الوقت لم يرد ، أوه إحذرى يا أجلافين

أجلافين — ماذا يا سيليزيت ؟

سيليزيت — لا شيء ، لا شيء ، هذا سيمر ، لقد كنت أظن أننى لن أقول الحقيقة

أجلافين — أنا لن أطلبها بعد الآن يا سيليزيت

سيليزيت — عندما أقول لك غير الحقيقة ، ضعى يدك على فمى ، عديني بذلك ، أنا أرجوك

أجلافين — أنا أعدك بذلك يا سيليزيت

سيليزيت ، إلى ميليا ندر : إن لدى شيئاً أريد أن أقوله لها يا ميليا ندر

(لم يكد ميليا ندر يسمع هذا حتى يبتعد فى سكون)

سيليزيت — إنه حزين ، إنه حزين ، ستقولين له ذلك يوماً فى المستقبل حينما يحل النسيان محل الذكريات ... ضعى يدك على شفتى يا أجلافين إننى أتألم فجأة

أجلافين — قولى لى ، قولى لى ياسيليزيت .

سيليزيت — لقد نسيت كل ما كان ينبغى أن يقال ... ... لم يكن ذلك هو الحقيقة وإنما الكذب هو الذى كان يصعد إلى فمى ... ضعى يدك فى نفس الوقت على عينى يا أجلافين . ينبغى أن تغلقيهما كما فتحتهما .

أجلا فين — سيليزيت ! ... ...

سيليزيت فى ضعف شديد : إننى . . . إننى هويت وأنا أنحنى . . .

(ثم ماتت)

أجلافين ، صارخة معولة : ميليا ندر ميليا ندر . .

ميليا ندر ينكب منتحباً فوق جثة سيليزيت صائحاً : سيليزيت ، سيليزيت !

« انتهت »

محمد غلاب